«ثُمَّ هٰذَا .... هَلْ تَسْمَعُ هٰذَا الصَّوْتَ الْغَرِيبَ يَا أَبَتِ ؟ »

« نَعَمْ يَا بُنَيَّ »

« أَهُوَ رَعْدٌ ؟ »

« لاَ . كَانَ يُودِى أَنْ يَكُونَ رَعْداً . إِنَّ هٰذَا قَرْعُ الطُّبُولِ ، دَلاَلَةَ عَلَى أَنَّ الْهُنُودَ يَسْتَعِدُّونَ لِلْحَرْبِ . وَالْوَيْلُ لَنَا إِذَا تَجَمَّعُوا وَهَاجَمُونَا »

دَارَ هٰذَا الْحَدِيثُ بَيْنَ أَحَدِ الْمُهَاجِرِينَ الْإِنْجِلِيزِ وَابْنِهِ ، وَكَانَا يَقْطُنَانِ فِي مِنْطَقَةِ الْهُنُودِ الْحُمْرِ . وَبَعْدَ ذٰلِكَ بِقَلِيلٍ قَفَزَ الْوَالِدُ فَجْأَةً ، وَانْتَزَعَ عَدَّارَتَهُ مِنَ الْحَائِطِ وَصَوَّبَهَا نَحْوَ النَّافِذَةِ ، وَالْتَفَتَ ابْنُهُ بِسُرْعَةٍ ، فَرَأَى وَجْهاً أَسْمَرَ نَاحِلاً يَعْرِفُهُ ، فَصَرَخَ قَائِلاً : « لاَ تُطْلِقِ النَّارَ يَا أَبِي ، إِنَّ هٰذِهِ « شُعَاعُ الْقَمَرِ » الْفَتَاةُ الْهِنْدِيَّةُ الصَّغِيرَةُ ، وَلاَ بُدَّ أَنَّهَا جَاءَتْ تَحْمِلُ إِلَيْنَا خَبَراً ذَا بَالٍ ، فَاسْمَحْ لِي بِإِدْخَالِهَا . »

وَتَرَدَّدَ الْوَالِدُ قَلِيلاً ، مَخَافَةَ أَنْ تَكُونَ الْفَتَاةُ إِحْدَى الْجَوَاسِيسِ ، وَلٰكِنَّ ابْنَهُ طَمْأَنَهُ قَائِلاً : « قَدْ تَكُونُ (شُعَاعُ الْقَمَرِ) هِنْدِيَّةً ، وَلٰكِنَّهَا صَدِيقَةٌ مُخْلِصَةٌ ، وَكَثِيراً مَا لَعِبْنَا مَعاً ؛ فَأَنَا أَعْرِفُهَا حَقَّ الْمَعْرِفَةِ . » ثُمَّ قَامَ وَفَتَحَ الْبَابَ ، وَدَخَلَتِ الْفَتَاةُ ، تَبْدُو عَلَيْهَا أَمَارَاتُ التَّعَبِ وَالاِنْزِعَاجِ ، وَقَالَتْ : « لَقَدْ لَعِبْتُ مَعَ صَدِيقِي هٰذَا كَثِيراً ، فَأَنْتُمْ أَصْدِقَائِي ، وَلِذَا جِئْتُ لِأُحَذِّرَكُمْ وَأُنْذِرَكُمْ بِأَنَّ عَمِّي « الثَّعْلَبَ الْأَحْمَرَ » قَدْ ثَارَ ضِدَّ صُفْرِ الْوُجُوهِ (تَقْصِدُ الْإِنْجِلِيزَ) ، فَلَيْكُمَا بِالْإِسْرَاعِ فِي الرَّحِيلِ مِنْ هُنَا قَبْلَمَا يَقْتُلُكُمَا . وَهُوَ الْآنَ فِي انْتِظَارِ إِشَارَةٍ مِنْ

صديقه « جناح النسر » رئيس قبيلة « ذوى الأقدام السود » ، فإذا وافقه الصديق على القتال ، قامت القبيلتان معاً بمهاجمة المهاجرين من الصفر . فقال لها الوالد : « ومتى يصل لعمك الرد ، وكيف يأتيه ؟ »

شعاع القمر : « سيأتيه الرد هذا المساء مع رسول . فإذا عاد الرسول حاملاً فأساً بيضاء ، كان معنى ذلك أن « ذوى الأقدام السود » لا يريدون القتال . أما إذا عاد حاملا فأساً حمراء ، كان ذلك معناه الاستعداد للقتال . والآن يجب أن أعود إلى عمى ، فإنه لو علم بحضورى إلى هنا لقتلنى على الفور . »

وقام الولد ففتح الباب لشعاع القمر ، وشكرها على عطفها وتعريض نفسها للأخطار من أجله ، ثم ودعها وانصرفت . ولما عاد ، وجد والده يحشو غدارته بالرصاص ، فقال له : « ماذا تنوى عمله يا والدى ؟ »

الوالد : « سأذهب وأختبىء فى الغابة ، حيث أنتظر مرور الرسول ؛ فإذا كان حاملاً فأساً بيضاء تركته يمر ، وأما إذا كان حاملاً فأساً حمراء ، أسرته ، وذهبت بدله ، حاملاً فأساً بيضاء . »

الولد : « لا يا والدى . لا تذهب . إن هذه مخاطرة كبيرة بحياتك . »

الوالد : « الواجب يدعونى للذهاب لحماية جميع إخواننا الإنجليز المبعثرين فى هذه المنطقة . فالوداع يا بنى . أقفل الباب جيداً ، واحترس لنفسك . »

الولد : « الوداع يا والدى . أتمنى لك التوفيق . »

وخرج الوالد فى الظلام الدامس ، وبقى ابنه فى الكوخ ، بعد أن أحكم إغلاق الباب والنوافذ ، وأطفأ النور . وكان صوت الطبول لا يزال يدوى فى أذنيه ، عالياً مخيفاً فى سكون الليل . وبقى هكذا يفكر فى والده ويدعو له ، حتى غلبه النعاس فنام .

ولم يدر الولد كم من الوقت قضاه نائماً ، حين استيقظ على صوت دق الباب . وقام منتعجاً ، وفتح الباب ، فوجد والده ، والدم يسيل من وجهه بغزارة ، وفى يده فأس مدهونة باللون الأحمر ، وبجانبه رجل من الهنود الحمر ، مكتوف اليدين والرجلين ، ومكمم الفم ،

فَقَالَ الْوَالِدُ : « هَا قَدْ أَحْضَرْتُ الْفَأْسَ يَا بُنَيَّ ، وَقُمْتُ بِوَاجِبِي . أَدْخِلْنَا كِلَانَا ، فَقَدْ كُسِرَ سَاقِي وَهُشِّمَ وَجْهِي ، وَكَذَا أُصِيبَ الرَّسُولُ الْهِنْدِيُّ إِصَابَاتٍ كَبِيرَةً ، لِعَدَمِ رَغْبَتِهِ فِي التَّفْرِيطِ فِي الْفَأْسِ . »

وَمَا كَادَ الرَّجُلَانِ يَدْخُلَانِ ، حَتَّى سَقَطَا مِنْ فَرْطِ الإِعْيَاءِ ، وَأَصَابَهُمَا إِغْمَاءٌ شَدِيدٌ . فَقَامَ الْوَلَدُ بِتَضْمِيدِ جِرَاحِهِمَا ، ثُمَّ فَكَّرَ فِي الْفَأْسِ الْحَمْرَاءِ ، وَعَزَمَ عَلَى الْقِيَامِ بِالْوَاجِبِ بَدَلَ وَالِدِهِ . فَأَخَذَ الْفَأْسَ ، وَأَزَالَ عَنْهَا اللَّوْنَ الأَحْمَرَ ، فَظَهَرَتْ بَيْضَاءَ ؛ ثُمَّ ارْتَدَى مَلَابِسَ الْهُنُودِ ، الَّتِي أَعْطَتْهُ إِيَّاهَا شُعَاعُ الْقَمَرِ هَدِيَّةً فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ ، وَصَبَغَ وَجْهَهُ ، ثُمَّ كَتَبَ عَلَى الْحَائِطِ رِسَالَةً لِوَالِدِهِ ، يَقُولُ فِيهَا إِنَّهُ خَرَجَ لِلاِسْتِكْشَافِ . وَسَارَ فِي ظَلَامِ الْغَابَةِ وَدُرُوبِهَا الْمُوحِشَةِ ، حَامِلاً الْفَأْسَ ، مُسْتَرْشِداً بِصَوْتِ الطُّبُولِ ، حَتَّى لَاحَ الْفَجْرُ ، وَبَدَأَ الضَّوْءُ يَنْتَشِرُ ، وَهُوَ يَسِيرُ نَحْوَ الْقَبِيلَةِ مُسْرِعاً ، فَيَزْدَادُ صَوْتُ الطُّبُولِ ارْتِفَاعاً ، وَرَأَى مِنْ خِلَالِ الأَشْجَارِ أَفْرَادَ الْقَبِيلَةِ مُلْتَفِّينَ حَوْلَ الطُّبُولِ ، حَامِلِينَ حِرَابَهُمْ وَسِهَامَهُمْ ، وَعَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُمْ رَئِيسُهُمْ ، الثَّعْلَبُ الأَحْمَرُ ، وَبِجَانِبِهِ مُسْتَشَارُهُ ، فَاسْتَجْمَعَ قُوَاهُ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ ، فَوَقَفُوا جَمِيعاً صَارِخِينَ ، مُصَوِّبِينَ أَسْلِحَتَهُمْ نَحْوَهُ . لَكِنَّهُ اسْتَمَرَّ فِي سَيْرِهِ ، رَافِعاً رَأْسَهُ بِشَجَاعَةٍ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى الثَّعْلَبِ الأَحْمَرِ ، ثُمَّ وَقَفَ مُطْرِقاً فِي أَدَبٍ وَاحْتِرَامٍ . فَقَالَ لَهُ الثَّعْلَبُ الأَحْمَرُ :

« مَنْ أَنْتَ ، وَمِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ ؟ »

الْوَلَدُ : « أَنَا النَّسْرُ الصَّغِيرُ بْنُ « جَنَاحِ النَّسْرِ » ، وَقَدْ جِئْتُكَ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ مِنْ وَالِدِي . » وَرَفَعَ الْفَأْسَ الْبَيْضَاءَ مُلَوِّحاً بِهَا فِي الْهَوَاءِ .

وَهُنَا ثَارَ أَفْرَادُ الْقَبِيلَةِ ، غَاضِبِينَ صَاخِبِينَ ، ثُمَّ قَامَ مُسْتَشَارُ الرَّئِيسِ ، وَقَالَ : « أَلَيْسَ لَدَى جَنَاحِ النَّسْرِ غَيْرُ وَلَدِهِ يُرْسِلُهُ إِلَيْنَا » . فَرَدَّ عَلَيْهِ الْوَلَدُ قَائِلاً : « إِنَّ لَدَى وَالِدِي مِنَ الشُّجْعَانِ مَا يَفُوقُ عَدَدَ النُّجُومِ ، وَلَكِنَّهُ أَرْسَلَنِي ، أَنَا ابْنَهُ ، مُبَالَغَةً فِي احْتِرَامِكُمْ » . فَلَمَّا سَمِعَ الثَّعْلَبُ الأَحْمَرُ ذَلِكَ ، ابْتَسَمَ مَسْرُوراً مِنْ هَذَا الْمَدِيحِ وَقَالَ : « اسْمَعْ يَا بُنَيَّ ، إِنَّ وَالِدَكَ فَارِسٌ مَاهِرٌ لَا يَقْلِبُهُ أَحَدٌ . وَالْوَلَدُ سِرُّ أَبِيهِ . فَهَلْ تَأْتِيكَ بِحِصَانِ تَرْكَبُهُ ، فَتُبَرْهِنَ عَلَى أَنَّكَ حَقِيقَةً ابْنُ جَنَاحِ النَّسْرِ ؟ » وَكَانَ الْوَلَدُ مَاهِراً فِي رُكُوبِ الْخَيْلِ ، فَقَالَ : « لَقَدْ قُلْتُ إِنِّي ابْنُ جَنَاحِ

النَّسْرِ ، وَكَلِمَتِي كَافِيَةٌ يَجِبُ تَصْدِيقُهَا . وَلَكِنِّي مَعَ ذَلِكَ ، طَوْعاً لِإِرَادَتِكَ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِتَنْفِيذِ رَغْبَتِكَ . »

وَجَاءُوا لَهُ بِحِصَانٍ ، اسْمُهُ الشَّيْطَانُ الْأَسْوَدُ ، وَهُوَ مَشْهُورٌ بِشَرَاسَتِهِ ، فَلَمْ يَسْبِقْ أَنْ رَكِبَهُ رَاكِبٌ إِلَّا أَسْقَطَهُ مِنْ فَوْقِ ظَهْرِهِ . فَأَمْسَكَهُ الْوَلَدُ وَقَفَزَ بِخِفَّةٍ عَلَى ظَهْرِهِ . وَهَاجَ الْحِصَانُ هِيَاجاً شَدِيداً ، وَأَخَذَ يَقْفِزُ بِعُنْفٍ ، وَيَدُورُ حَوْلَ نَفْسِهِ ، مُحَاوِلاً إِسْقَاطَ رَاكِبِهِ ، مِنْ غَيْرِ جَدْوَى .

وهاج الحصان هياجا شديدا

وَازْدَادَ غَيْظُ الْحِصَانِ ، فَانْدَفَعَ يَجْرِي نَحْوَ الْجُمُوعِ الْمُحْتَشِدَةِ مِنْ أَفْرَادِ الْقَبِيلَةِ ، فَتَبَعْثَرُوا هَرَباً مِنْ بَطْشِهِ ، وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ فَتَاةٍ صَغِيرَةٍ ، تَبَيَّنَهَا الْوَلَدُ ، فَإِذَا بِهَا شُعَاعُ الْقَمَرِ . وَكَانَ الْحِصَانُ عَلَى وَشْكِ أَنْ يَطَأَهَا تَحْتَ حَوَافِرِهِ فَصَرَخَ النَّاسُ ، وَصَاحَ الثَّعْلَبُ الْأَحْمَرُ : « ابْتَعِدِي يَا شُعَاعَ الْقَمَرِ ، ابْتَعِدِي ! » وَالْفَتَاةُ وَاقِفَةٌ فِي مَكَانِهَا لَا تَتَحَرَّكُ مِنَ الْخَوْفِ وَالْهَلَعِ . وَحِينَئِذٍ اسْتَوَلَتْ عَلَى الْفَارِسِ الصَّغِيرِ قُوَّةٌ خَارِقَةٌ لِلْعَادَةِ فَجَذَبَ اللِّجَامَ وَالْمِعْرَفَةَ بِشِدَّةٍ جَعَلَتِ الْحِصَانَ يَرْفَعُ سَاقَيْهِ الْأَمَامِيَّتَيْنِ ، وَيَقِفُ عَلَى السَّاقَيْنِ الْخَلْفِيَّتَيْنِ وَحْدَهُمَا . وَظَلَّ الْوَلَدُ يَشُدُّ اللِّجَامَ بِقُوَّةٍ ، حِينَ وَجَدَ أَنَّ الْحِصَانَ ، إِذَا نَزَلَ ، دَاسَ الْفَتَاةَ تَحْتَ أَقْدَامِهِ ، وَاسْتَمَرَّ يَشُدُّ اللِّجَامَ ، حَتَّى الْتَكَفَّأَ الْحِصَانُ عَلَى ظَهْرِهِ ، وَسَقَطَ الرَّاكِبُ . وَغَابَ الْوَلَدُ عَنْ صَوَابِهِ مِنْ شِدَّةِ الصَّدْمَةِ ، وَأَفَاقَ عِنْدَ مَا شَعَرَ بِيَدٍ رَقِيقَةٍ تَمَسُّ وَجْهَهُ بِخِفَّةٍ وَحَنَانٍ ، فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ ، وَرَأَى شُعَاعَ الْقَمَرِ بِجِوَارِهِ ، تَشْكُرُهُ وَتُشَجِّعُهُ . وَجَاءَهُ الثَّعْلَبُ الْأَحْمَرُ ،

رَئِيسُ الْقَبِيلَةِ ، وَهُوَ يَحْمِلُ فِرَاءً كَبِيراً ، وَيَقُودُ حِصَاناً هَادِئاً جَمِيلاً ، وَقَالَ لَهُ : « أَهْنِئُكَ أَيُّهَا النَّسْرُ الصَّغِيرُ عَلَى شَجَاعَتِكَ ، وَأَشْكُرُكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ مِنْ أَجْلِ ابْنَةِ أَخِي . لَقَدْ حَضَرْتَ إِلَيْنَا مَاشِياً عَلَى قَدَمَيْكَ ، تَرْتَجِفُ مِنَ الْبَرْدِ ، حِينَ الْتَفَتَ وَرَاءَهُ مَحْيَاً ، وَرَأَى أَهْلَ الْقَبِيلَةِ جَمِيعاً وُقُوفاً يَلُوِّحُونَ بِأَيْدِيهِمْ تَحِيَّةَ الْوَدَاعِ ، وَبَيْنَهُمْ صَدِيقَتُهُ الصَّغِيرَةُ ، تُلَوِّحُ بِحَمَاسٍ وَفَرَحٍ . فَلَوَّحَ بِذِرَاعِهِ مُوَدِّعاً شَاكِراً . وَسَارَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى أَبِيهِ . فَوَجَدَهُ قَدْ أَفَاقَ ، وَقَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ ، فَعَانَقَهُ

رئيس القبيلة وهو يحمل فراء كبيرا يهديه للولد مع حصان هادئ جميل

وَنَحْنُ نُعِيدُكَ إِلَى أَخِينَا جَنَاحِ النَّسْرِ ، رَاكِباً حِصَاناً مِنْ أَحْسَنِ جِيَادِنَا ، وَمُرْتَدِياً فِرَاءً مِنْ أَنْفَسِ مَا لَدَيْنَا ؛ مُتَمَنِّينَ لَكَ سَفَراً سَعِيداً ، وَرَاجِينَ إِبْلَاغَ تَحِيَّاتِنَا إِلَى وَالِدِكَ الْمَحْبُوبِ . »

وَلَمْ يُصَدِّقِ الْوَلَدُ أَنَّهُ نَجَا فِعْلاً ، فَرَكِبَ الْجَوَادَ ، وَالْتَفَّ بِالْفِرَاءِ ، وَسَارَ مُسْرِعاً . وَلَكِنَّهُ وَقَبَّلَهُ ، وَحَمِدَ اللهَ الَّذِي كَفَى النَّاسَ شَرَّ الْقِتَالِ .

وَلِمُدَّةِ زَمَنٍ طَوِيلٍ ، عَرَفَ أَهْلُ الْقَبَائِلِ حِيلَةَ الْفَتَى الصَّغِيرِ ، فَأَكْبَرُوا شَجَاعَتَهُ ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَباً فِي صَدَاقَتِهِمْ مَعَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَجَانِبِ ، فَعَاشُوا جَمِيعاً فِي سَلَامٍ .